الإمام أبو المظفر السمعاني ومنهجه في التفسير

تاريخ تسلم البحث: 2004/3/29م تاريخ قبوله للنشر: 2005/3/7م

فايز صالح الخطيب*

ملخص

يدور هذا البحث حول أمرين هما:

الأول: حول عالم فذ من علماء المسلمين الأوائل، وهو الإمام أبو المظفر السمعاني الذي كان إماماً في شتى أنواع العلوم الإسلامية والعربية، وترك لنا عدة مؤلفات نالت إعجاب العلماء من بعده.

الثاني: حول منهجه الذي سار عليه في تفسيره المسمى (التفسير الحسن المليح) ولخصته في إحدى عشرة نقطة، ثم دوّنت أهم المآخذ على منهجه وكانت تسع نقاط.

Abstract

The subject of this study is (Imam Abu Al-Mudaffar Assam'ani and his method in commentary).

Assam'ani had been born in the 5th Hijri century descendent of Tamim clan; he was raised in a family known with cognition and honor, particularly his father. The homeland of Marou Shahjan where he was born had generated too many scholars and personalities, and thus Imam Assam'ani wasn't an exception; he was a scholar in commentary, prophetic tradition, faith, fiqh and fundamentals, Arabic language, and writing. He assumed a casuistic position in Khurasan as a whole. His counterparts of researchers applauded him for his honor and cognition. Assam'ani had left several works that were highly admired by scholars who came later.

This research has studied the life of the Imam, his growth, travels, time academic status and scholars praise. Then, the researcher summarized his method in ten points and mentioned the most significant criticisms in eight points. The study ends up with a conclusion and the most significant results.

* أستاذ مساعد، قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة اليرموك.

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فلا شك أن الدراسات القرآنية هي الينبوع الفياض المغدق الذي يغذي الأمة، وينير لها طريقها لمعرفة تعاليم السماء، وفهم كتاب الله العزيز.

والأمة الإسلامية بحاجة دائماً إلى الاطلاع والإلمام بمعاني القرآن والوقوف على أسراره وحكمه وأحكامه في كل العصور والأزمنة، لذا فإنني أقدم هذا البحث حول عالم إسلامي من علماء الأمة الإسلامية، وحول تفسيره لمعرفة منهجه وهو (الإمام السمعاني ومنهجه في تفسيره)، ولا بد من نبذة عامة عن حياة الإمام السمعاني، وعن سبب اختياري هذا الموضوع.

ولد السمعاني في القرن الخامس للهجرة في بيت علم وفضل، وسلالته (سمعان) نالت سمعة طيبة ومكانة مرموقة في الشرق الإسلامي عامة، وفي بلاد خراسان خاصة[1]. حيث كان أسلاف هذه السلالة قدوة العلماء وأسوة الفضلاء فهي إذاً من أرفع البيوتات، وبلده التي ولد فيها هي (مرو الشاهجان) خرّجت عدداً من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم.

ويعد عصره الذي عاش فيه عصر ازدهار اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية، علاوةً على ما قام به الإمام من عدة رحلات علمية طلباً للعلم، كل ذلك كان له أكبر الأثر في تكوين شخصية الإمام السمعاني وازدهار فكره، فنبغ في شتى العلوم الإسلامية، وكان إماماً فيها، مع ما تميَّز به من الصلاح والتقوى، والزهد في الدنيا كل ذلك أهّله ليشغل منصب الإفتاء في بلاد خراسان بلا منازع[2].

تتلمذ على يديه عدد من طلاب العلم صاروا فيما بعد علماء أجِلاَّء حيث خدموا هذا الدين، وأسهموا في نشر الوعي الإسلامي بين المسلمين.

ترك للأجيال من بعده مصنفات ومؤلفات نالت إعجاب العلماء من بعده، وبخاصة تفسيره الذي يعد من أجلّ المصنفات القديمة في التفسير، وتلقته الأمة بالقبول[3]. واستحسنه

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

كل من طالعه فهو كتاب نفيس قيِّم أثرى تراثنا الإسلامي في التفسير.

ولأن القليل من الدارسين وأهل العلم من يسمع بهذا التفسير آثرت أن يكون هذا العالم، وهو أبو المظفر السمعاني وتفسيره الجليل الذي سماه: (التفسير الحسن المليح) مدار بحث ودراسة للوقوف على شخصية هذا العالم الفذ الذي كان علماً في عصره، ولإبراز علمه وفضله للناس والوقوف على منهجه الذي سار عليه، وتدوين بعض المآخذ عليه.

اقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع أن أقسّمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وأهم نتائج البحث على النحو الآتي:

المبحث الأول : الإمام أبو المظفر السمعاني، وفيه أربعة مطالب: الأول: نسبه ونشأته، الثاني: رحلاته وعصره وجرأته العلمية، الثالث: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته العلمية، الرابع: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

المبحث الثاني : منهج الإمام السمعاني في تفسيره، وفيه إحدى عشرة نقطة.

المبحث الثالث : مآخذ على تفسيره.

الخاتمة : أهم نتائج البحث.

المبحث الأول

الإمام أبو المظفر السمعاني

المطلب الأول: نسبه ونشأته:

نسبه: هو العالم الرباني الفذ: منصور بن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم بن عبد الله السمعاني[4].

ولد في القرن الخامس الهجري عام ستة وعشرين وأربعمائة بعد الهجرة في مدينة مرو الشاهجان التي تعد من أعظم مدن خراسان[5].

كان إماماً جليلاً زاهداً ورعاً تقياً ملأ ذكره العالم الإسلامي آنذاك وفاحت نفحات علمه وفضله وتقواه في أرجاء العالم وكان مفتي خراسان[6].

نشأته: نشأ الإمام أبو المظفر السمعاني – رحمه الله – وترعرع في بيت علم وفضل فتغذى بالعلم من مناهله الصافية العذبة وتلقاه من والده محمد بن عبد الجبار حيث كان من أئمة الحنفية فتفقه عليه وبرع في مذهب أبي حنيفة، قال عنه الإمام السبكي: (سمع الحديث في صغره وكبره)[7] ولم يكتف أبو المظفر السمعاني في أخذ العلم عن والده، بل تلقاه من علماء بلده فأخذ عنهم التفسير والحديث والعقيدة والفقه وأصوله، ومن أكبر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم هو الشيخ أحمد بن علي بن الحسين الكراعي[8]، ونال مرتبة عليا بين أهل العلم والعلماء فكان مفتياً لبلاد خراسان بلا منازع.

المطلب الثاني: رحلاته وعصره وجرأته العلمية:

رحلاته: رحل الإمام السمعاني إلى جرجان وأصبهان وهمدان وقزوين، واستفاد من علماء وأساتذة تلك المناطق، وسمع الأحاديث النبوية من كبار أعلام المحدثين هناك.

لم يكتف السمعاني بتلقي العلم من علماء بلده بل آثر الرحلات العلمية فقصد المراكز العلمية خارج خراسان ودخل بغداد سنة إحدى وستين وأربعمائة، وتلقى العلم من علمائها[9]، ثم رحل إلى الحجاز وبقي هناك يتلقى العلم من علماء مكة حتى حج وأتم نسكه، ثم عاد إلى خراسان، ودخل مرو سنة ثمان وستين وأربعمائة[10].

عصره: شهد عصره الذي عاش فيه كثرة الفرق الدينية التي بدأت تسيطر على أفكار المثقفين وعقليتهم منذ القرن الثاني الهجري، ونذكر منها: أهل السنة والشيعة والمعتزلة.

أما عصره السياسي، فقد شهد قيام دولة السلاجقة، وكانوا من أهل السنة، وبسطوا نفوذهم على بلاد خراسان والعراق، وكان عهد هذه الدولة عهد ازدهار اللغة العربية وآدابها، والعلوم الإسلامية حيث إنها أقامت المدارس الدينية في المدن الكبرى كأصفهان ونيسابور ومرو، وكان الإقبال شديداً على هذه المدارس فاجتمع بها عدد كبير من العلماء والعباقرة، كما قدم إليها طلاب العلم من كل مكان[11].

ولا شك أن هذه المدارس الكثيرة التي أنشئت في تلك البلاد لعبت دوراً كبيراً في تنشيط الحركة الفكرية فيها حتى قصدها طلاب العلم من كل مكان، وكان منهم أبو المظفر السمعاني.

وهكذا شهد القرن الخامس الهجري عصراً واسع النطاق في مجال العلم والثقافة كان له أكبر الأثر في تكوين شخصية الإمام السمعاني.

جرأته العلمية: وبعد رجوعه من رحلاته العلمية أعلن الإمام انتقاله من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي إذ إنه لم يستطع أن يشفي غليله من المبادئ الفقهية التي عليها أساس المذهب الحنفي ووجد ضالته في الأصول الفقهية التي عليها أساس المذهب الشافعي، وهناك سبب آخر لانتقاله من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي وهو تغلب أفكار القدرية على علماء المذهب الحنفي آنذاك، وقد صرّح الإمام بهذا السبب لأخيه أبي القاسم لما لامه وهجره وأظهر له الكراهة، وقال للإمام: (خالفتَ مذهب الوالد وانتقلت عن مذهبه، فردّ عليه قائلاً: (ما تركت المذهب الذي كان عليه والدي – رحمه الله – في الأصول بل انتقلت عن مذهب القدرية، فإن أهل مرو صاروا في أصول اعتقادهم إلى أهل القدر).

وصنف كتاباً يزيد على عشرين جزءاً في الردّ على القدرية وأهداه إليه فرضي عنه وطاب قلبه[12]. وقد لامته العامة وثاروا عليه، وقد بدا للإمام السمعاني أن يخرج من مرو لأيام فهدأت فيها ثائرة المتعصبين[13].

وقد رحل الإمام السمعاني إلى جرجان وأصبهان وهمدان وقزوين، واستفاد من علماء وأساتذة تلك المناطق، وسمع الأحاديث النبوية من كبار أعلام المحدثين هناك[14].

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته العلمية:

شيوخه وتلاميذه: لا يمكن لنا في مثل هذه الدراسة إحصاء عدد أساتذة وتلامذة الشيخ السمعاني لكثرتهم، فقد تلقى الشيخ السمعاني العلوم الإسلامية على عدد كبير من المشايخ، وكان من بينهم المحدثون والفقهاء والحفاظ وغيرهم حتى بلغ عدد شيوخه جمعاً كبيراً.

إن السمعاني نفسه ألف معجماً ذكر فيه شيوخه الذين سمع منهم وأخذ منهم العلم سماه (معجم الشيوخ) [15].

ومما يدل على كثرة شيوخه قول ابن خلكان: (إن أبا المظفر جمع في الحديث ألف حديث عن مائة شيخ)[16]، هذا في الحديث وحده!! فإلى أيّ حد عسى أن يبلغ عددهم في

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

سائر العلوم الأخرى؟!.

وإلى هذه الكثرة يشير قول حفيده أبي سعد فقال: (سمع جدي أبو المظفر جماعة كثيرة بخراسان وجرجان والحجاز)[17]، وقول السبكي كذلك: (سمع خلقاً بخراسان والعراقين[18]، والحجاز)[19].

أما أسماء أولئك الذين تلقوا العلم عن السمعاني فهم أيضاً كثر ونكتفي بذكر قول حفيده، وقول الإمام الذهبي. يقول حفيده: (روى لي عن جدي الحديث أبو القاسم الجنيد بهراة، وأبو طاهر ببلخ، وأبو بكر بنيسابور، وأبو الوليد بطوس، وأبو منصور بأصبهان)[20]، وقال أيضاً: (روى لي الحديث عنه جماعة كثيرة تزيد على خمسين نفراً)[21].

هذا عدد تلامذة السمعاني الذين سمعوا منه الحديث ثم سمع منه حفيده وكم من تلامذته لم يتيسر لحفيده أن يسمع منهم، وهذا في علم الحديث فحسب، فما بالنا بالعلوم الأخرى؟ !.

أما الإمام الذهبي بعد أن ذكر أسماء عدد من الذين رووا عنه، فقال: (وخلق كثير)[22]، وأشهر من أخذ عنه وتأثر به ابنه محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت: 510هـ(وكان والده يفخر به ويقول على رؤوس الأشهاد في مجلس الأمراء: (ابني محمد أعلم مني وأفضل)[23].

مؤلفات السمعاني ومصنفاته: ولما أخذ الإمام العلم مبكراً في أوائل عمره من مصادره الغزيرة ولم يأل جهداً في طلبه، فبعد أن تمكن منه ونضج فهمه صار إلى نشره وتبليغه امتثالاً لقوله عليه الصلاة والسلام: (بلّغوا عني ولو آية)[24]، فترك للأجيال من بعده مؤلفات ومصنفات عديدة ومتنوعة في مواضيع شتى نذكر منها:

1- (التفسير الحسن المليح): استحسنه كل من طالعه، وهو كتاب نفيس في مجلدات ثلاثة[25].
2- (الانتصار لأصحاب الحديث): مؤلف في علم الحديث، وهو مختصر يحتوي على ثلاثة أبواب فقط.[26] الأول: في الحث على السنة والجماعة، والثاني: في فضل الحديث، والثالث: في شجرة العلم.
3- (منهاج أهل السنة)[27].

4- الرد على القدرية: يحتوي الكتاب على عشرين جزءاً كتبه لأخيه أبي القاسم[28].

5- (الأحاديث الألف الحسان): جمعها من مسموعاته من مائة شيخ عن كل شيخ عشرة أحاديث[29].

6- (القواطع): مصنف في أصول الفقه، وقد أثنى عليه كثير من علماء عصره[30].

7- (البرهان): كتاب قيّم يحتوي على ألف مسألة خلافية[31].

8- (الطبقات)[32].

وبعد حياة حافلة بالعلم والتعليم والتأليف والتصنيف، استمرت حوالي ثلاثة وستين عاماً، انتقل الإمام السمعاني إلى رحمة ربه سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ودفن في مرو – رحمه الله تعالى-.

المطلب الرابع: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

شهد للسمعاني أصحاب التراجم والعلماء، وأشادوا بجهوده العلمية وميراثه المعرفي فمدحوه وأثنوا عليه.

قال عنه ابن خلكان: المنصور: إمام عصره بلا مدافعة أقر بذلك الموافق والمخالف[33].

فهو إمام في العقيدة، وأشد الناس إنكاراً على كل زائغ ضال من أصحاب الفرق الضالة كتب (كتاب الرد على القدرية)[34]. وقد مضى ذكره سابقاً، وناظر أهل الفرق الضالة.

وهو إمام في السنة لشدة تمسكه بها، وكان من أشد الناس إنكاراً على أهل البدع، قال الذهبي: (تعصّب لأهل الحديث والسنة والجماعة وكان شوكة في أعين المخالفين وحجة لأهل السنة)[35]، وله إمامة في الفقه والإفتاء، وأصول الفقه.

قال إمام الحرمين: (لو كان الفقه ثوباً طاوياً لكان أبو المظفر السمعاني طرازه)[36]، وقال السبكي: (ولا أعرف في أصول الفقه أحسن من كتاب القواطع)[37].

وهو إمام أيضاً في التفسير وله كتاب فيه وهو (التفسير الحسن المليح) الذي أشرنا إليه سابقاً ضمن مؤلفات الإمام. وكان -رحمه الله – إماماً في العربية، قال عنه ابن الأثير:

(كان إماماً في العربية وله بها تصانيف مفيدة)[38].

وكان إماماً في الوعظ والمناظرة أيضاً قال الذهبي: (وكان بحراً في الوعظ)[39]، وقال الإمام أبو علي بن الصفار: (إذا ناظرت أبا المظفر فكأني أناظر رجلاً من أئمة التابعين، مما أرى عليه من آثار الصالحين)[40]، وكما أن له إمامة في باب التأليف والتصنيف كانت له يد طولى في فنون كثيرة[41].

وهكذا كان السمعاني عالماً – رحمه الله تعالى – إماماً وبحراً وعالماً فذاً في شتى العلوم والمعارف قد ثبتت له الإمامة وشهد له نظراؤه بذلك كما امتاز أيضاً بشدة ورعه وزهده وعبادته. قال السبكي: (الإمام الجليل العلم الزاهد الورع أحد أئمة الدنيا، الرفيع القدر، العظيم المحل، المشهور الذكر، أحد من طبق الأرض ذكره، وعبق الكون نشره)[42]. وعن شدة حفظه وذكائه يقول الإمام عن نفسه: (ما حفظت شيئاً فنسيته)[43].

ونظراً إلى هذه الأوصاف والمحامد، كثر الثناء عليه من معاصريه ومن كل من جاء بعده من أهل العلم يقول حفيده: (وجدّنا الإمام أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني إمام عصره بلا مدافعة وعديم النظير في وقته ولا أقدِر أن أصف بعض مناقبه، ومن طالع تصانيفه وأنصف عرف محله من العلم)[44].

وقال عنه طاش كبرى زاده: (منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني الرفيع القدر الشهير الذكر طبق الأرض ذكره وعبق الكون نشره)[45].

المبحث الثاني

منهج الإمام السمعاني في تفسيره

لقد تنوعت مؤلفات الإمام أبي المظفر السمعاني وآثاره فشملت مختلف مجالات العلوم الإسلامية، واشتهرت هذه المؤلفات وذاع ذكرها ونالت إعجاب العلماء وخاصة تفسيره المسمى (الحسن المليح) الذي حاز مكانة عالية، وأثنى عليه العلماء وتلقته الأمة بالقبول، فهو كتاب نفيس استحسنه كل من طالعه.

ومن أجل أن هذا التفسير يحمل العقيدة الصافية من عقائد أسلافنا الصالحين، ويُعدّ من التصانيف القديمة، ومن أجل كونه أغنى تراثنا الإسلامي؛ فهو يستحق منا أن يكون موضع بحث ودراسة وأحاول هنا أن أجمل منهجه في تفسيره ليتسنى للقارئ الكريم أن يأخذ صورة ولو موجزة عن هذا التفسير القيّم.

جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية إلاّ أنه غلب فيه الجانب النقلي على الجانب العقلي، فيُعدّ إذاً من التفسير بالمأثور ويتكون من ثلاثة مجلدات متوسطة الحجم. عرض فيه الإمام لتفسير آيات كتاب الله تعالى بأسلوب سهل موجز في لغة عذبة فصيحة، تحاشى ما ولع به كثير من المفسرين من المصطلحات المنطقية والفلسفية والنكت البلاغية التي لا تتعلق بالتفسير، وابتعد عن التكرار والتطويل. يذكر في بداية كل سورة اسمها، وإن كان لها أكثر من اسم يذكرها، كما يبين مكيتها ومدنيتها، ويذكر الآيات المكية في السور المدنية، والآيات المدنية في السور المكية إن كان فيها ذلك. كما أنه يذكر ما ورد في سبب نزول الآية أو الآيات، ويقف عند كل آية ويفسرها باختصار.

ويحتكم كذلك إلى اللغة العربية عندما يعلل بعض المعاني، ويستشهد في بعض المواضع بالشعر العربي على المعنى الذي يذكره، ويذكر أقوال من سبقه من المفسرين، وكثيراً ما يقول: وقيل، وقال، وقال بعضهم، وعند بعضهم ولا يعيّن هذا البعض.

ويذكر القراءات الواردة مع توجيهها، ويوجّه بعض إشكالات ترد على ظاهر النّظم، ثم يجيب عنها تارة بقوله: (فإن قيل كذا) (والجواب كذا).

ويتعرّض في تفسيره لبعض المسائل الفقهية ومذاهب العلماء وأدلتهم، وإن كان مقلاً في هذه الناحية فلا يتوسع ولا يكثر كما أنه يذكر مذهب أهل السنة والجماعة وينتصر له، ويرد على الفِرق الضالة المخالفة لأهل السنة كالمعتزلة والمرجئة والخوارج وغيرهم.

ويذكر في تفسيره مباحث من علوم القرآن مثل المكي والمدني وأسباب النزول والنسخ، ويهتم بالتوفيق بين الأقوال.

ورغم جلال قدره وغزارة علمه في مختلف جوانب العلوم الإسلامية لم يخل تفسيره من

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

ذكر بعض القصص الإسرائيلي والمرويات الخرافية التي تمس أحياناً عصمة الأنبياء، ثم هو لا ينكرها، مع أنها ظاهرة الزيف والكذب ولا أصل لها ولا دليل عليها وإن كان هو مقلاً ليس كغيره كالبغوي والخازن والثعلبي.

وينقل أحياناً عمن ليسوا بثقة، أو عرفوا بنقل الحكايات الغريبة المنكرة والكذب في الحديث، كما أنه ينقل القراءة المتواترة والشاذة.

وبعد هذا الإيجاز نقول:

كان للإمام السمعاني أسلوب متميز بنى منهجه في التفسير على أساسه ويمكن تلخيصه في نقاط:

أولاً: عنايته بالمأثور: تفسير القرآن بالقرآن:

نجد أن الإمام ينظر إلى النص القرآني في ضوء نظائره القرآنية إن وجدت؛ لأن ما أُبهم في موضع وضح في موضع آخر، وما أُجمل في موضع فصّل في موضع آخر، وما جاء عاماً في مكان خُصّص في مكان آخر، ونسوق بعض الأمثلة على ذلك:

فعند تفسير قوله تعالى: **[ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ]**[46] يقول الإمام: أي ذي الشرف، وقد قال في موضع آخر: **[لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ]**[47] أي شرفكم[48].

وعند قوله تعالى: **[وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ]**[49]. قال السمعاني: فإن قيل: قد قال بدّلناهم بجنتيهم جنتين، والأرض التي فيها أشجار الأثل والخمط لا تُسمى جنّة؟ والجواب عنه: إنما سمّي ذلك على طريق المقابلة، وهو مثل قوله تعالى: **[فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ]**[50]، وقوله: **[وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا]**[51]، وعند قوله تعالى: **[فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ]**[52] يقول: فإن قيل: قال ههنا **[فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ]**، وقال في موضع آخر: **[لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ]**[53]، وهو يدل على أنه لم يُنبذ بالعراء، كيف وجه التوفيق بين الآيتين؟ والجواب عنه: إنّ الله تعالى قال في تلك الآية: **[لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ]** أي لولا رحمتنا ونعمتنا لنبذ بالعراء وهو مذموم ولكن تداركته النعمة وهو غير مذموم.

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة:

فسر الإمام القرآن بالأحاديث النبوية الشريفة التي أوردها عن كبار المحدثين أو أخذها من أمهات كتب الحديث، فعند قوله تعالى: **[لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ]**[54] قال: أكثر المفسرين على أن سبأ اسم رجل ونسبت القبيلة إليه كما أن تميماً اسم رجل، ونسبت القبيلة إليه، فروى فروة بن مسيك الغطفاني أن رسول الله e قال: (سبأ اسم رجل وله عشرة من الذكور فتيامّنَ منهم ستة، وتشاءم أربعة، وأما الستة الذين تيامنوا فحمير وكندة ومذحج والأزد والأشعر وأنمار، وأما الأربعة الذين تشاءموا فعاملة وغسان ولخم وجذام)[55].

ويستشهد أحياناً بالحديث لتوضيح الكلمة، أو العبارة، فمثلاً عند قوله تعالى: **[أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ]**[56] يقول الإمام: "اختلفوا في مدة القرن. وقد بينا من قبل، وقد روي عن النبي e أنه قال لعبد الله بن بسر المازني: (إنك تعيش قرناً) فعاش مائة سنة"[57].

وعند تفسير قوله تعالى: **[النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا]**[58] يقول: "أكثرُ المفسرين إن هذا في القبر، وعن ابن مسعود y أنه قال: (أرواح آل فرعون في حواصل طير سود يردون النار غدواً وعشياً)[59]، وقد ثبت برواية مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي e قال: (إن أحدكم إذا مات يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فالجنة، وإن كان من أهل النار فالنار"[60].

ثالثاً: المأثور من أقوال الصحابة رضي الله عنهم:

أضاف مع اعتماده على الكتاب والسنة اعتماده على المأثور من تفسير الصحابة والتابعين- رضي الله عنهم- وتوسع في ذلك كثيراً دون أن يذكر سند من يروى عنه.

قال في قوله تعالى **[ص]** أما معنى **[ص]** فروي عن ابن عباس أنه قال (صدق محمد) e، وعن الضحاك (صدق الله) وقال مجاهد: (هذا من مفاتيح السورة)، وقال قتادة: (اسم من أسماء القرآن وهو قسم)[61]، ولا شيء من ذلك يصح، وفي قوله تعالى: **[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا]**[62].

روي عن أبي بكر الصديق t أنه قال: (**[اسْتَقَامُوا]** أي: لم يشركوا بالله شيئا) وعن

عمر t قال: (لم يروغوا روغان الثعالب)[63].

رابعاً: عنايته بالقراءات:

نلاحظ أن الإمام يهتم بالقراءات اهتماماً واضحاً فينقل أحياناً عقب تفسيره للكلمة أو الآية القراءات التي وردت فيها، وينبه أحياناً على نوعية القراءة من حيث تواترها وشذوذها، ويذكر توجيهها، وينزل عليها المعاني المختلفة، يقول مثلاً في قوله تعالى: **[ص]** قرأ الأكثرون **[ص]** بالتسكين، وقرأ الحسن **[ص]** بخفض الدال، وقرأ عيسى بن عمر النحوي **[ص]** بفتح الدال، والقراءة المعروفة بالتسكين، وعلة التسكين أنه حرف من حروف التهجي وعند العرب أن هذا يكون ساكناً، وأما قراءة الحسن فمعناه: صاد القرآن بعملك أي: عارضه بعملك، وأما قراءة الفتح: فمعناه: أتل صاد[64]. ويفضل أحياناً قراءة على قراءة لأنها أوفق في المعنى فمثلاً عند قوله تعالى: **[وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ]**[65] بتنوين اللام، وقُرئ أكل خمط بغير التنوين على الإضافة، والقراءة على الإضافة أظهر القراءتين في المعنى لأن الخمط اسم الشجرة له شوك[66] يأتي أحياناً بقراءات شاذة فيصرِّح بها تارة ولا يُصرِّح بها أخرى، ففي قوله تعالى: **[قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا]**[67] يذكر قراءة ابن مسعود (من أهبنا من مرقدنا)[68] وهي قراءة شاذة ولكن لم يصرح بها.

خامساً: الجوانب اللغوية واستشهاده بالأشعار:

نجد أن للجوانب اللغوية نصيباً في تفسيره، فهو يحاول أن يفسر الألفاظ القرآنية بصورة واضحة وميسرة فيبين معنى الكلمات بما قاله أئمة اللغة، ويحتكم إلى اللغة العربية عندما يعلل بعض المعاني، فعند قوله تعالى: **[كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً]**[69] يقول: "فالأمة في اللغة على وجوه منها: الأمة: بمعنى الدين، ومنه قول النابغة: حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع أي: ذو دين، والأمة: الفِرق من الناس وغيرهم، فالترك أمة والروم أمة، والفرس أمة، ومن الطير أمة، قال الله تعالى: **[وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ]**[70].

والأمة: الحين، قال تعالى: **[وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ]**[71] أي بعد حين، والأمة: الإمام الذي يقتدى به، ومنه قوله تعالى: **[إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً]**[72] والأمة: المعلّم للخير، والأمة: القامة ومنه قول الشاعر:

وإن معاويـــة الأكرميـــن حسان الوجوه طوال الأمم[73]

والإمة بكسر الألف: النعمة، والمراد بالأمة ههنا الدين وفي قوله تعالى: **[وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ]**[74] يقول: أي بالجدال الباطل ليدحضوا به الحق، والجدال هو فتل الخصم عمن هو عليه بحق أو باطل، وأما المناظرة: فلا تكن إلاّ بين محقين أو بين محـــق ومبطـــل، والجدال قد يكون بين المبطلين".

أما استشهاده بالأشعار في تفسيره فهو كثير على المعنى الذي يذكره، فتارة يـــذكر البيت كاملاً، وتارة يأتي بشطر من الشعر، كما أنه غالبٌ لا يصرح باســـم الشـــاعر إلاّ قليلاً جداً، وأكثر ما يقول:

قال الشاعر: ومثال ذلك، عند تفسير قوله تعالى: **[فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِـــمْ يَنسِلُونَ]**[75] ينسلون: أي يسرعون قال الشاعر:

عسلان الذئب أمسى قاربا برد الليـــل عليه فنســـل

وقال امرؤ القيس:

فسلّى ثيابي من ثيابك تنسل: والنسلان فوق المشي دون العدو[76].

سادساً: اهتمامه بالتوفيق بين الأقوال:

يحاول الإمام التوفيق بين الأقوال فيقول عند تفسير قوله تعالى: **[فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًـــا صَرْصَرًا]**[77] قال مجاهد: شديد السموم، وقال قتادة: شديدة البرد من الصـــر وهـــو البـــرد، ويمكن الجمع بين القولين لأنه قيل إنما كانت ريحا باردة تحرق كما تحرق السموم.

وفي قوله تعالى: **[وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَـــزَنَ]**[78] يقول: قال ابـــن عباس: حزن النار، وعن قتادة: حزن الموت، وعن بعضهم: همّ المعيشة، وقال مجاهـــد: همّ الخبز، والأولى أن يحمل على جميع الأحزان فهم ينجون عن كلها[79].

سابعاً: ذكره للسؤال وللجواب عنه:

ومن عادة الإمام في تفسيره إذا بدا إشكال في مكان ما أورد هذا الإشكال بقولـــه: (فإن قيل) أو (إن قال قائل) أو (إذا قال أحد) ثم يجيب عن هذا الإشكال بقوله: (قلنـــا) أو

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

(الجواب عنه) فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: **[قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ]**[80] يقول: قال ابن عباس: يوم الأحد ويوم الاثنين، وهذا القول لا دليل عليه، فإن قال قائل: ما الحكمة في خلقها في يومين؟ وقد كان قادراً على خلقها في ساعة أو أقل من ذلك! قلنا: خلق في يومين ليرشد خلقه إلى الأناة في الأفعال وليكون أبعد عن توهم اتفاق أو فعل طبع ولأنه لا سؤال عليه في خلقه فكيف ما شاء خلق[81]. وعند قوله تعالى: **[بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ]**[82] يقول: أي: ورب غفور للذنوب إن شكرتم لنعمه، فإن قيل: أي فائدة لتخصيصهم بهذا والله غفور لكل العباد؟ والجواب عنه: إن مغفرة الربّ مع طيب البلدة على تلك الغاية لم تكن إلاّ لهم[83].

ثامناً: مباحث علوم القرآن في تفسيره:

عني الإمام السمعاني خلال تفسيره بمباحث علوم القرآن، وهي المباحث المتعلقة بكتاب الله **U** من حيث ترتيبه، وأسباب نزوله، مكيه، ومدنيه، وتفسيره وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، إلى غير ذلك من المباحث، وسوف نذكر بعضها. قال الإمام السيوطي في المكي والمدني: "ذكر العلماء في تعريفها ثلاثة اصطلاحات لوحظ فيها الزمان والمكان والخطاب، والأول أشهرها، والأرجح عند العلماء وهو أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع بسفر من الأسفار"[84] يقول السمعاني عند بداية سورة (ص): "تفسير سورة (ص) وهي مكية"[85].

وعند تفسيره سورة الزمر يقول: "تفسير سورة الزمر، ويقال سورة الغرف وهي مكية إلا قوله تعالى: **[اللَّهُ نزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ]**[86] وإلاّ قوله تعالى: **[قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ]**[87]". وهذا القول لا يصح ولا دليل عليه.

وفي أسباب النزول لا بد أن نعلم أن (القرآن الكريم من حيث النزول قسمان: قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثير ظاهر، وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة)[88].

ومن الأمثلة على ذكر أسباب نزول الآيات والسور في تفسير السمعاني يقول عند تفسير قوله تعالى: "**[أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ]**[89] وفي التفسير أنه لما نزلت هذه الآية، قال

أبو جهل: (هل تعرفون الزقوم) فقال عبد الله ابن الزبعري: (نعم نعرفه وهو بلسان البربر الزبدة والتمر) فقال أبو جهل لجاريته ائتي لنا زبداً وتمراً، فجاءت بذلك فقال: (هو الزقوم الذي يخوفكم به محمد فتزقموا) فأنزل الله تعالى: **[إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ]**[90]. وأما بالنسبة لقول ابن الزبعري، وهو الزقوم بلسان البربر، فهو لا يصح". وقد يورد السمعاني سبباً لنزول الآية ثم يختار غيره عليه لأن ذلك لا يتفق مع نزول السورة فمثلاً يذكر في قوله تعالى: **[وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ]**[91] فيقول: قال بعضهم: هذا في مؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وغيره، والصحيح أن الآية في الذين آمنوا بالنبي **e** من أهل مكة وغيرهم وهو بمكة لأن السورة مكية، وعبد الله بن سلام وأشباهه إنما آمنوا بالمدينة[92].

تاسعاً: موقفه من الأحكام الفقهية:

مع أن الإمام السمعاني كان متبحراً في علم الفقه؛ إلا أنه لم يكن يناقش آيات الأحكام إلاّ قليلاً، ويناقش مرجحاً رأي الشافعي على غيره استناداً إلى الدليل، فنراه عند قوله تعالى: **[كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ]**[93] يقول: "والوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين، وذلك أن الوصية كانت واجبة في ابتداء الإسلام للوالديْن والأقربين، ثم صار منسوخاً بآية الميراث، قال النبي **e**: (إن الله تعالى قد أعطى كل ذي حق حقه لا وصية لوارث)[94]، وقال الحسن وطاووس وقتادة والضحاك: إن النسخ في الوالدين دون الأقربين ثم اختلفوا فيمن أوصى بثلث ماله للأجنبي، وقال بعضهم: ثلثاه للأقربين، وثلثه للأجنبي، وقال بعضهم كل الثلث للأقربين، ولا شيء للأجنبي، والأصح أنه صار منسوخاً في حق الكل، ويبقى الاستحباب في حق الأقربين الذين لا يرثون"[95].

وفي قوله تعالى: **[وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ]**[96] يقول الإمام: أي حتى يذبح في موضعه، موضع الذبح عندنا حيث أحصر وتحلل، وقال أبو حنيفة: موضعه مكة، وما قلناه أصح، لأن النبي **e** لما بلغ الحديبية معتمراً فصدّه المشركون تحلل وذبح هناك[97]. وعند قوله تعالى: **[فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ]**[98] قال: "قال ابن عمر وابن مسعود أراد به فمن فرض فيهن بالتلبية أي: فمن لبىّ، وعندنا يختص إحرام الحج، وعند أبي حنيفة

يجوز في جميع السنة، وفيه خلاف الصحابة وهو مذكور في الفقه"[99].

عاشراً: موقفه من الإسرائيليات:

لا شك أن من أخطر القضايا المتعلقة بالتفسير، هي قضية الإسرائيليات في كتب التفسير، ولقد امتلأت بعض كتب التفسير بمثل هذه الخرافات والأساطير والتي يمس بعضها عصمة الأنبياء -عليهم السلام- ولها آثار سيئة على الإسلام والمسلمين وجاءت إلى الإسلام عن طريق مسلمي أهل الكتاب بعد أن أسلموا وكان مصدرها وأساسها اليهود ولكن الله **U** قيض لهذا الدين علماء تصدوا لمثل هذه الأباطيل، وبينوا زيفها وبطلانها، وحذروا الناس من تصديقها أو الركون إليها.

والإمام السمعاني مع جلال قدره وطول باعه في شتى العلوم الإسلامية لم يستطع أن يصون تفسيره من ذكر الإسرائيليات، فقد اشتمل على روايات سخيفه وبخاصة في قصة داود وسليمان عليهما السلام، وما هذه الروايات إلا اتهامات وافتراءات اختلقها اليهود ونسبوها إلى هذين النبيين الكريمين، وقد روى الإمام السمعاني مثل هذا في تفسيره ولم يعلق عليه بكلمة واحدة، أو يتعقبها.

فمثلاً يقول عند تفسير الآية الكريمة **[إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً]**[100]: "إن داود عليه الصلاة والسلام كان قد خصص أياماً لعبادة الله سبحانه، وأياماً للقضاء، وأياماً للجلوس مع الناس وأياماً لأزواجه، وفي يوم من الأيام كان يتلو التوراة والزبور، فإذا هو بطائر عليه اللآلي، فطمع داود في تلك اللآلي والألماس وأراد أن يمسكه فطار الطائر، وطارده داود عليه السلام فرأى فجأة أمامه امرأة حسناء كانت تغتسل وهي عارية، فوقع حبها في قلبه، وسأل عنها، ثم أرسل زوجها إلى الجهاد ودبّر خفيا أن يقدّم الرجل في الجيش كيما يقتل، فقتل، وبعد ذلك تزوج داود **u** بها)[101] ثم ذكر الإمام السمعاني أن داود عليه السلام ندم على ذنوبه وخرّ ساجداً باقيا في سجدته أربعين يوماً لم يرفع رأسه حتى نبت العشب حوله! وظل باكياً لم ينقطع عنه الدموع حتى عند مأكله وملبسه ومنامه. ومع ذلك إذا قام يوم القيامة تكون ذنوبه منحوتة على كفيه"[102].

فهل يمكن لأي عاقل أن يصدق أن نبياً مثل داود **u** صاحب الجاه والملك والمال والثروة يطمع في مال طائر حقير لا يساوي شيئاً مما آتاه الله تعالى؟!

وكيف أن نبياً أكرمه الله بالنبوة يصاب بمرض العشق بامرأة ثم يدبّر مؤامرة لقتل زوجها فهل يرضى العقل بهذه الأخبار؟ ! لا ريب أن هذه الأخبار تقدح في عصمة الأنبياء، ومما يجب أن تتنزه عنه عقيد المسلم.

ويذكر السمعاني بصدد سليمان عليه السلام جميع الأكاذيب التي اختلقها اليهود، وذكر بصدد ابتلاء سليمان عليه السلام أن زوجة من أزواجه كانت تعبد صنماً نحتته الجنة بأمر سليمان! ثم علّق السمعاني على هذا الخبر بأن هذا هو المشهور[103].

ومن الإسرائيليات الغريبة المستنكرة ما ذكره في وصف الدابة التي في قوله تعالى: **[وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ]**[104] فيروي عن علي **t** قوله: ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية، كأنه يشير إلى رجل وليست بدابة. ويقول: والأكثرون على أنها دابة وهي تخرج في آخر الزمان، ويذكر قول ابن الزبير: هي دابة رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير، وأذنها إذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها النعامة، وصدرها صدر أسد، وجلدها جلد نمر، وخاصرتها خاصرة هر وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً...القصة[105]. وكان حرياً به عند رواية مثل هذه الخرافات والأساطير أن يُنبه على زيفها وبطلانها ولا سيما أنه كان إماماً في الحديث.

الحادي عشر: موقفه من الآيات التي تتعلق بالعقيدة:

إن الميزة البارزة لتفسير الإمام حمله العقيدة السلفية السليمة النقية، وتجلى ذلك واضحاً في تفسيره، وفي رده على الفرق الضالة وانتقادها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في إضافة الحسرة إلى الله تعالى: فعند قوله تعالى: **[يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ]**[106] يقول: فإن قيل: كيف تحسّر الله تعالى على العباد الذين أهلكهم، ولا تجوز عليه هذه الصفة والجواب عنه: إن الحسرة على الله لا تجوز قلنا نعم ومعنى الآية يا

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

حسرة على العباد من أنفسهم، فكأنهم يتحسرون على أنفسهم غاية الحسرة، والحسرة هي التلهف على أمر فائت بأبلغ وجوهه حتى يبقى الرجل حسيرا منقطعاً من شدته...وجواب آخر: أنه تعالى قال يا حسرة الرسل والملائكة على العباد؛ والجواب الأول أحسن الأجوبة[107].

وقوله أيضاً في الاستواء على العرش عند تفسير قوله تعالى: **[إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ]**[108] قال الإمام: "أوّل المعتزلة الاستواء بالاستيلاء وأنشدوا فيه:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وأما أهل السنة فيتبرؤون من هذا التأويل ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف والإيمان به واجب كذلك يحكى عن مالك بن أنس وغيره من السلف، أنهم قالوا في هذه الآية، الإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وعند قوله تعالى: **[قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ]**[109] يقول الإمام: "روى الوالبي عن ابن عباس أنه قال: (غير ذي عوج) أي: غير مخلوق، وحكى سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق، وهذا اللفظ أيضاً منقول عن علي بن الحسين زين العابدين"[110].

ويقول أيضاً في رده على الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة: عند قوله تعالى: **[فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ]**[111]: "وهذا دليل على أن النار مخلوقة لا كما قال أهل البدعة، ودليل على أنها مخلوقة للكافرين، وإن دخلها بعض المؤمنين تأديباً وتفريكاً، لأن أهل السنة اتفقوا على أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: بل ينشئهما يوم القيامة"[112]. ويقول السمعاني عند تفسير قوله تعالى: **[وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ]**[113] أي صلاتكم، فجعل الصلاة إيماناً، وإنما سموا المرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان. وحكى أن أبا يوسف شهد عند شريك بن عبد الله القاضي فردّ شهادته، قيل له: أتردّ شهادة يعقوب؟ فقال كيف أقبل شهادة من يقول: إن الصلاة ليست من الإيمان[114].

ويقول أيضاً عند تفسير الآية الكريمة: **[وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ]**[115] قال البراء بن عازب وهو قول الحسن: (الآية في المشركين)، قال ابن

عباس – رضي الله عنهما -: (الآية في المسلمين وأراد به كفر دون كفر) واعلم أن الخوارج يستدلون بهذه الآية ويقولون من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وأهل السنة قالوا لا يكفر بترك الحكم.

وللآية تأويلان: أحدهما معناه: ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً وجحدا فألئك هم الكافرون والثاني معناه: ومن لم يحكم بكل ما أنزل الله فألئك الكافرون، والكافر هو الذي يترك الحكم بكل ما أنزل الله دون المسلم[116].

وقد ردّ السمعاني على الطاعنين في نصوص القرآن إذ يقول عند قوله تعالى: **[إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ]**[117] وقد طعن بعضهم وقال: إن هامان رجل معروف بين الفرس ولم يكن صاحب فرعون وليس هذا بشيء لأنه يجوز أن يكون في الفرس رجل يسمى هامان، وكان صاحب فرعون هو هامان فكل ما في القرآن حق وصدق[118].

المبحث الثالث

مآخذ على تفسير السمعاني

مما لا ريب فيه أن تفسير الإمام السمعاني – رحمه الله- حسن وقيّم في ذاته يحمل عديداً من المحاسن والفوائد وهو أسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور، وقد أثنى عليه كثير من العلماء كما تقدم، ولكن الكمال لله وحده وكل تفسير لا يخلو من المآخذ، وهناك أمور أخذت عليه نذكر أهمها:

1- ذكره للأخبار الإسرائيلية: والحق أنها قليلة إذا قورنت بما ورد في كتب التفسير الأخرى أمثال: الطبري، والثعلبي، والبغوي، والخازن، ومثل هذه الإسرائيليات تضر ولا تنفع، وتزعزع الثقة بعلماء الأمة ومنها ما يقدح بعصمة الأنبياء الكرام ويا ليته أعرض عن هذه الخرافات والأساطير.

2- قلة تعرضه للقضايا والأحكام الفقهية مع أنه فقيه بارع، على أنه كان يمكن أن يأتي بأبحاث فقهية يستفيد منها المتقدمون والمتأخرون.

3- عدم عزوه الأقوال إلى قائليها ورجعة النصوص إلى أصحابها: فتارة يأتي بصيغة

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

التعريض (قيل) وتارة يقول: (وفي التفسير) وتارة يقول: (وعن بعضهم)، (وفي القصة)، (وفي بعض الأخبار) (وفي الأثر) وهكذا فمثلاً يقول في تفسير الآية الكريمة **[وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً]**[119]: "اختلف القول في الفضل، فقال بعضهم: هو النبوة، وقال بعضهم: هو الملك، يقال: القضاء بالعدل، وقيل: حسن الصوت، وقيل: (تليين الحديد)[120] بينما هذه الأقوال ذكرها غيره من المفسرين ونسبوها إلى قائليها.

4- نسبته الأقوال المشهورة إلى غير قائليها: فمثلاً يقول في تفسير الآية الكريمة: **[قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]**[121] عن زيد بن علي – رضي الله عنهما- أنه قال: (هذه الآية أوسع آية في القرآن) وقد نسب المفسرون الآخرون هذا القول إلى علي ابن أبي طالب **t** ولقد رواه ابن جرير الطبري والثعلبي عن ابن سيرين بسنده عن علي بن أبي طالب **t** [122].

5- عدم القول الراجح بل كان يخلط، فيرجح المرجوح، ويصفه بالراجح: ذكر السمعاني في أماكن عديدة في تفسيره عن القول الراجح بأنه مرجوح فمثلاً نقل في تفسير الآية الكريمة **[فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ]**[123] قول ابن عباس – رضي الله عنهما- أن سليمان عليه السلام جعل يمسح عراقيبها وأعناقها بيده وثوبه شفقة عليها) ثم علق بقوله: (وهذا قول ضعيف ولا يليق هذا الفعل بما سبق[124] بينما رجح هذا القول كثير من المفسرين.

6- عدم التسلسل والترتيب في تفسير الآيات، فكان يفسر آية من آيات سورة، ثم يمضي فيفسر ما بعدها من الآيات، ثم يرجع فيفسر الآية السابقة مرة أخرى، وهذا أسلوب يفقد الربط والانسجام في الكلام. فمثلاً فسر السمعاني الآية: **[فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ]**[125] ثم فسر قوله تعالى: **[فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ]**[126] ثم سرد قصصا طويلة، ثم رجع فجأة يفسر كلمة (راكعاً) وقال: (وأنشدوا في الركوع بمعنى السجود –على ما بينا- شعراً) ثم ذكر البيت[127]. ومثل هذا الأسلوب لا يستحسن إذ إنه يفقد الربط والانسجام في الكلام.

7- ومما يؤخذ عليه في تفسيره أيضاً الإحالة من غير تعيين أو تحديد، فهو لا يصرّح في الإشارة إلى ما سبق من تفسير آية مشابهة لها في المعني، ويكتفي بقوله: قد بينا من قبل، ولا يشير إلى السورة أو الآية أو إلى مكان هذه الإشارة، فأين يبحث القارئ عن ذلك الموضع، ولو صرّح عنه لكان أحسن فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: **[حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ]**[128] يقول: "أي توارت الشمس بالحجاب، فكني عن الشمس، وإن لم يجر لها ذكر وقد بينا مثال هذا" ... وهكذا.

8- اعتمد الإمام السمعاني في تفسيره على محمد بن الحسن بن محمد بن زياد (المعروف بأبي بكر النقاش) اعتماداً كبيراً وهو معروف عند العلماء برواية الأحاديث المنكرة والحكايات الغريبة. قال فيه الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى-: (تفرد بأشياء منكرة)[129]، وقال الحسن بن العباس بن أبي مهران البرقاني: (كل حديث النقاش منكر)[130]، وقال فيه الإمام الذهبي: (وهو مصنف كتاب شفاء الصدور في التفسير، وقد أتى بالعجائب والموضوعات، وهو مع علمه وجلاله ليس بثقة)[131] وقال طلحة ابن محمد بن جعفر: (كان النقاش يكذب في الحديث والغالب عليه القصص)[132].

الخاتمة

وأهم نتائج البحث:

الحمد لله أولاً وآخراً، وبعد:

فقد توصلت في هذا البحث إلى أهم النتائج الآتية:

1- أن تفسير الإمام السمعاني يعد من أجلّ المصنفات القديمة في التفسير الذي جمع فيه بين التفسير النقلي والتفسير العقلي، وإن كان يغلب عليه التفسير النقلي، والذي تجلت فيه عقيدة أسلافنا الصالحين، فأغنى تراثنا الإسلامي.

2- أنه فسر آيات الله بأسلوب سهل موجز فصيح، تحاشى ما ولع به كثير من المفسرين من المصطلحات المنطقية والفلسفية، والنكات البلاغية، والعلوم التي لا تتعلق بالتفسير، بعيداً عن التكرار والتطويل.

3- أن شخصية الإمام السمعاني كانت فذة نادرة أهلته أن يكون إماماً في شتى العلوم الإسلامية.

4- أن الأمة الإسلامية التي خرجت الآلاف من العلماء في شتى أنواع العلوم الإسلامية، وغيرها من العلوم الأخرى، وقادت الإنسانية نحو الخير والصلاح أكثر من ألف سنة من الزمان قادرة اليوم أن تعود إلى دورها الطليعي القيادي من جديد لو رجعت هذه الأمة إلى ربها وتمسكت بكتابه وسنة رسوله e.

5- أنه كان للعلماء الأوائل جهد بارز في التصدي للفساد، وردهم على الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة مثل المعتزلة والمرجئة والخوارج وغيرهم، وكانوا من أشد الناس إنكاراً على أهل البدع والأهواء، وتجلى ذلك في موقف الإمام السمعاني منهم، وعلى علماء الأمة في هذا الزمان أن يحذوا حذوهم ويقتدوا بهم.

6- إن معظم التفاسير في العهود الأولى غلب عليها التفسير بالمأثور الذي كثر فيه المرويات الدخيلة، والقصص الإسرائيلي والروايات الضعيفة، وإن خالفت هذه المرويات سنن الله في الكون، أو خالفت العقل السليم، أو مست عصمة الأنبياء الكرام، كتفسير الثعلبي والبغوي والخازن والنسفي والدر المنثور وغيرها من التفاسير، فكان من الواجب على من بعدهم من العلماء تنقية كتب التراث من هذه الشوائب والخرافات التي علقت بكتب التفسير.

7- أنه لا يجوز رواية مثل هذه الإسرائيليات، أو تدوينها إلا بقصد التحذير منها وعدم تصديقها أو الركون إليها.

8- تحلّي علماء السلف بالجرأة الإيمانية، والجهر بكلمة الحق والصدع بها لا يخافون في الله لومة لائم وإن أدى ذلك إلى سخط الناس عليهم وهجرهم لهم ولومهم، وقد تجلّى في موقف الإمام السمعاني في إعلانه الانتقال من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي بسبب تغلّب الأفكار القدرية على علماء مذهب الحنفية آنذاك، فلامه أخوه، وعامة الناس، فثبت على رأيه، ووضح لأخيه موقفه على ما قد تبين.

9- إن كثيراً من العلماء الأوائل ممن عرف عنهم الصلاح والتقوى والزهد في الدنيا وكانوا

في زمانهم أعلاماً ومنارات علم وهدى قد نسيتهم أمتهم في هذا الزمان وجهلت فضلهم، فأحببت أن أحيي ذكرى بعضهم، وأبصّر الناس بمؤلفاته والإفادة منها كما هو الإمام: أبو المظفر منصور السمعاني – رحمه الله تعالى-.

الهوامش:

(1) انظر: السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناجي، مطبعة عيسى البابي، الحلبي، مصر، بتصرف، ج7، ص181.

(2) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج12، ص164.

(3) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد، **الأنساب**، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1963م، ج7، ص223- 226.

(4) سمعان: بطن من بطون قبيلة بني تميم. انظر: السمعاني، **الأنساب**، ج7، ص232. ابن خلكان، أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، ص1. كان لهذه السلالة (سمعان) مكانة مرموقة في الشرق الإسلامي عامة وفي بلاد خراسان خاصة فكانت تعد من أرفع البيوتات الإسلامية مادياً ومعنوياً، كان لها من الصدارة في مجال العلوم الشرعية والأمور الدينية، فأسلاف هذه السلالة كانوا قدوة العلماء وأسوة الفضلاء لهم مكانة مغتبطة في علوم الفقه والحديث والتفسير. انظر: السبكي، **طبقات الشافعية**، ج7، ص181.

(5) ومرو الشاهجان تقع اليوم ضمن بلاد التركمان (تركستان) بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً. خرّجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان لم تخرج مدينة مثلهم. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج5، ص602- 616، وكان بهذه المدينة عشر مكتبات زاخرة بكتب العلوم الإسلامية، وكانت السلالة السمعانية تمتلك خزانتين منها كاملتين. انظر: **ياقوت الحموي**، ج5، ص114.

(6) انظر: ترجمة الإمام السمعاني في ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج12، ص164. الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج19، ص114- 139. ابن العماد، عبد الحي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مكتبة القدس، بجوار الأزهر، 1350هـ، ج2، ص393- 394. السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 5، ص335- 336. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص211. الداودي، محمد بن علي بن أحمد، **طبقات المفسرين**، دار الكتب العلمية. بيروت، ج2، ص339- 340. الأسنوي، **طبقات الشافعية**، ج2، ص29-30.

(7) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج5، ص335- 336.

(8) الذهبي، **سير الأعلام**، ج19، ص115.

(9) انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج4، ص93. انظر: **طبقات السبكي**، ج5، ص344.

(10) انظر: **طبقات السبكي**، ج5، ص337.

(11) انظر: الخالدي، فاضل، **الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق**، مطبعة الإيمان، بغداد، ص176-178.

(12) انظر: **الأنساب**، ج7، ص223.

(13) انظر: **طبقات السبكي**، ج5، ص344.

(14) انظر: **المصدر السابق** والجزء والصفحة.

(15) البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين**، مكتبة المثنى، بيروت، طبع استانبول، 1955م، ج3، ص473. فيمكن الرجوع إليه لمن شاء.

(16) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج2، ص211.

(17) السمعاني، **الأنساب**، ج7، ص224.

(18) المراد بالعراقين الكوفة والبصرة، انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج4، ص93.

(19) السبكي، **الطبقات**، ج5، ص336.

(20) السمعاني، **الأنساب**، ج7، ص225.

(21) **المصدر السابق** ونفس الجزء والصفحة.

(22) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج19، ص115.

(23) السمعاني، **الأنساب**، ج7، ص526.

(24) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، باب (50)، دار الفكر، بيروت، 1981م، ج4، ص145.

(25) انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص211.

(26) انظر: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله الرومي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مكتبة المثنى. بيروت، ص173. الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، ط6، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، ج7، ص303.

(27) اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ج3، ص151.

(28) انظر: **الأنساب**، ج7، ص224.

(29) انظر: **الأنساب**، ج7، ص225.

(30) **المصدر السابق**، ج7، ص224.

(31) **طبقات السبكي**، ج5، ص342.

(32) انظر: ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج3، ص393.

(33) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص211.

(34) **المصدر السابق** نفس الجزء والصفحة.

(35) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج19، ص116.

(36) **المصدر السابق** نفس الجزء والصفحة.

(37) **المصدر السابق** نفس الجزء والصفحة. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج5، ص343.

(38) ابن الأثير، علي بن محمد، **اللباب في تهذيب الأنساب**، دار صادر، بيروت.، ج2، ص138.

(39) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج19، ص116.

(40) **المصدر السابق** نفس الجزء والصفحة. **طبقات السبكي**، ج5، ص342.

(41) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج12، ص164.

(42) **طبقات الشافعية**، ج5، ص335.

(43) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج19، ص119. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج12، ص164.

(44) **طبقات السبكي**، ج5، ص342.

(45) طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الهند، ج2، ص191.

(46) سورة ص، الآية 1.

(47) سورة الأنبياء، الآية 10.

(48) انظر تفسيره: ج3، ص162.

(49) سورة سبأ، الآية 16.

(50) سورة البقرة، الآية 194.

(51) سورة الشورى، الآية 40. انظر تفسيره: ج3، ص140.

(52) سورة الصافات، الآية 145.

(53) سورة القلم، الآية 49.

(54) سورة سبأ، الآية 15.

(55) انظر تفسيره: ج3، ص139. رُويَ هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي **e**، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب: انظر: الترمذي، محمد عيسى، **سنن الترمذي**، (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله **e**، باب: ومن سورة سبأ حديث رقم: 3146)، حققه عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار الفكر، 1978م.

(56) سورة يس، الآية 31.

(57) انظر تفسيره: ج3، ص150. أما حديث (إنك تعيش قرناً) فقد أخرجه أحمد في المسند 4، ص189. ولفظه من طريق أبي عبد الله الحسن بن أيوب الحضرمي قال: أراني عبد الله بن بسر شامة في قرنه فوضعت أصبعي عليها فقال: وضع رسول الله e أصبعه عليها ثم قال: لتبلغن قرناً قال أبو عبد الله: وكان ذا حجة. وإسناده حسن، وأخرجه الطبراني كما في **مجمع الزوائد** للهيثمي ج9، ص405. وقال: (رواه الطبراني وأحمد ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن ابن أيوب وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات.

(58) سورة غافر، الآية 46.

(59) ورد في مصنف ابن أبي شيبة، عن وكيع عن سفيان عن أبي قيس عن هذيل بن شرحبيل قال: حديث مرسل لأن هذيلاً تابعي، ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، **مصنف ابن أبي شيبة**، دار التاج، بيروت، 1989م، ج7، ص54.

(60) انظر تفسيره: ج3، ص180. والحديث رواه البخاري رقم (1290). ورواه مسلم رقم (5110)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث، 1991م.

(61) انظر تفسيره: ج3، ص161.

(62) سورة فصلت، الآية 30.

(63) انظر تفسيره: ج3، ص186.

(64) انظر تفسيره: ج3، ص161.

(65) سورة سبأ، الآية16.

(66) انظر تفسيره: ج3، ص140.

(67) سورة يس، الآية 52.

(68) انظر تفسيره: ج3، ص152.

(69) سورة البقرة، الآية 213.

(70) سورة الأنعام، الآية 38.

(71) سورة يوسف، الآية 45.

(72) سورة النحل، الآية 120.

(73) انظر تفسيره: ج1، ص41.

(74) سورة غافر، الآية 5.

(75) سورة يس، الآية 51.

(76) انظر تفسيره: ج3، ص152.

(77) سورة فصلت، الآية 16.

(78) سورة فاطر، الآية 34.
(79) انظر تفسيره: ج3، ص147.
(80) سورة فصلت، الآية 9.
(81) انظر تفسيره: ج3، ص183.
(82) سورة سبأ، الآية 15.
(83) انظر تفسيره: ج3، ص139.
(84) السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر بن محمد سابق الدين جلال الدين، **الإتقان في علـــوم القرآن**، ط4، مكتبة الحلبي، مصر، 1978م، ج1، ص11- 12.
(85) انظر تفسيره: ج3، ص161.
(86) سورة الزمر، الآية 23.
(87) سورة الزمر، الآية 53، انظر تفسيره: ج3، ص170.
(88) الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، دار الفكر، بيروت، ج1، ص106.
(89) سورة الصافات، الآية 62.
(90) سورة الصافات، الآية 64.
(91) سورة سبأ، الآية 6.
(92) انظر تفسيره: ج3، ص137.
(93) سورة البقرة، الآية 180.
(94) الوصايا عن رسول الله باب: ما جاء لا وصية لوارث حـــديث (2046). أبـــو داود أبـــو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (كتاب الوصايا باب ما جاء في الوصية للوارث رقـــم 2486)، مراجعة وضبط دار إحياء التراث العربي 1980م.
(95) تفسيره: ج1، ص133.
(96) سورة البقرة، الآية 196.
(97) تفسيره: ج1، ص38.
(98) سورة البقرة، الآية 197.
(99) تفسيره: ج1، ص138.
(100) سورة ص، الآية 23.
(101) انظر تفسيره: ج3، ص164.
(102) انظر تفسيره: ج3، ص165.
(103) انظر تفسيره: ج3، ص167.

المنارة، المجلد **12**، العدد **3**، **2006**.

(104) سورة النمل، الآية 82.
(105) تفسيره: ج2، ص183.
(106) سورة يس، الآية 30.
(107) انظر تفسيره: ج3، ص150.
(108) سورة الأعراف، الآية 54.
(109) سورة الزمر، الآية 28.
(110) تفسيره: ج3، ص182.
(111) سورة البقرة، الآية 24.
(112) انظر تفسيره: ج1، ص7.
(113) سورة البقرة، الآية 143.
(114) انظر تفسيره: ج1، ص27.
(115) سورة المائدة، الآية 44.
(116) انظر تفسيره: ج1، ص22.
(117) سورة غافر، الآية 24.
(118) انظر تفسيره: ج3، ص178.
(119) سورة سبأ، الآية 10.
(120) انظر تفسيره: ج3، ص138.
(121) سورة الزمر، الآية 53.
(122) انظر تفسيره: ج3، ص174. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تفسير القرآن**، ط2، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي، 1968م، ج24، ص16. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، **الكشف والبيان**، مخطوط رقم الإيداع في مكتبة الجامعة الإسلامية (5) م ف، ج9، ص267.
(123) سورة ص، الآية 33.
(124) انظر تفسيره: ج3، ص166.
(125) سورة ص، الآية 24.
(126) سورة ص، الآية 25.
(127) انظر تفسيره: ج3، ص165.
(128) سورة ص، الآية 32.
(129) انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج11، ص258.
(130) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، **معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والإعصار**، تحقيق: بشار

عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج1، ص297.

(131) **المصدر السابق** وكذلك الجزء والصفحة.

(132) الداودي، **طبقات المفسرين**، ج2، ص136.